الشّعرُ والنّقدُ.. وجفافُ الينابيع(*)

بقلم، جهاد نعمان

١ ـ اللغةَ اللغةَ...

بين أبناء جلدتنا، كتّاب مجيدون، وشعراء مطبوعون، وأدباء بارعون، وخطباء مبرّزون. وكلّهم يستمدّون كتاباتهم من الينبوع الزاخر، ينبوع اللغة المتدفّق من معجمات لغة الضاد الأمهات، مجتزئين بانتقاء الألفاظ الملائمة للتعبير عن أفكارهم فصاحةً وبلاغةً.

هؤلاء المبدعون، على ندرتهم في هذه الأيّام، لا يقابلهم لغويّون كما في ما مضى يكون لهم الفضل العميم على اللسان العربيّ وأهله ومدى الدهر. ليس هناك مَن يجمع شتات المفردات في دواوين المبدعين لحفظِ مادّة ما دبّجوه وما أُوتوه من قرائح وقّادة، وما أدّخروه من معارف فيّاضة. وما بذلوه من جهود جبّارة.

عصرنا هذا، هو عصر الأزمات المتراكمة والمستجدّة. ولكنه أيضًا عصر التطوّر العلميّ والتّقني في العالم، وهو يذكّرنا عهد اللسانيّة والمعارف الدخيلة، عهد التعريب والترجمة في «بيت الحكمة» في دار السلام، أو عهد النهضة العربيّة المباركة التي تأرجح مركزها بين كبريات مدننا المشرقيّة؛ كما زاد كنز اللغة في ذلك الزمان بالأوضاع المستحدثة، فازدهرت وأصبحت آلة مرنةً لشتّى العلوم ومرافق الحضارة، فاليوم معقود الأمل أنّ لغتنا ستواصل السير في عزم وإقدام في سبيل الانتعاش فيزخرُ كنزها، وتتضاعفُ ثروتها، بهمّة علمائها الأعلام الساعين شرقًا وغربًا، كلٌّ في ميدان اختصاصه لاستنباط المصطلحات الجديدة في أبواب العلوم والتكنولوجيا العصريّة، أسوةً بأسلافهم في الماضي القريب أو البعيد.

ولكن، كيف يحصل هذا في هذه الأزمنة الضبابيّة والمأزومة؟ كيف يحصل هذا والغرباء ينفِرون من لغتنا، مدّعين أنها، ومن ثمَّ مداركُنا، خلوٌ من المنطق والاستساغة، بدليل أنَّ اللغة مرآة العقول، وآلةٌ لأداء الخواطر.

ثمَّةَ مصطلحات ككلمة «دويدات» للمعكرونة الشهيرة تتقزّز لذكرها النفس، وكلمة «الشاطر والمشطور وبينهما الكامخ» في مقابل كلمة سندويش... وهي مصطلحات طلع علينا بها أناس من عالمنا. فليتجنّد علماؤنا لتجنّب أمثال هذا الإغراق في اللامنطق والغرابة والاندفاع إلَى التوعّر والحُرشة في مجال الكلام والأقلام...

٢ ـ أُصلاءُ ومقلّدون...

سألني صديق أديب، يصدُقني الودَّ استسرَّ عنّي زمنا: مَن أحببتَ من شعرائنا القدامى؟ أجبت: ثمّة شاعران شُغفتُ بهما فجعلتهما نبراسًا أهتدي بنوره في أدبي وحياتي: أحدهما المتنبّي الذي فتنني باعتزازِه بشخصيّته، وحرصِه حتَّى في أشد مدائحه إسرافًا، على التعبير عن مكنون نفسه، وعن تجاربه ونظراته الصادقة في الحياة! والثاني: المعرّي الذي أثار بالغ إعجابي، لِما ألفيتُ في شعره ونثره من فلسفة إنسانيّة صادقة، وحرصٍ على كرامة الإنسان وكبره، وتصوير لموقفه من المجتمع والحياة والكون بوجه عام.